التربيـــة فى الأسرة

بقلم الأستاذ أحمد فهمى العمروسى بك

عناية الأمم الراقية بالتربية

تعنى الأمم الراقية بتربية أبنائها وأخذها إياهم بأفضل أساليب التربية والتعليم حتى يشبوا ويترعرعوا ؛ ذلك أنهم يؤمنون أصدق الإيمان بحسنات التربية والتعليم ، وأثرها البالغ فى النفوس ، ويعلقون عليهما أكبر الآمال فى تحقيق سعادة الوطن وبنيه .

وليس أدل على ذلك الإيمان، من أن قادة الفكر فى تلك الأمم يجمعون على أنه يستحيل على امة أن تأتى عملا جليلا ، أو تنفذ فكرة خطيرة، إلا إذا اعتمدت فى المضى ـ فيا تصبو إليه ـ على التربية والتعليم؛ وذلك بالرغم من تعدد المذاهب وتباين الآراء فى هذا العصر الذى أصبح مجالا لمتاوج الأفكار ، ومتنازع الآراء .

(ا) فرجال الدين يقولون: إن مستقبل الدين يتوقف على التربية والتعليم؛ (ب) ورجال السياسة يعتمدون عليهما فى تغليب آرائهم وانتصار أفكارهم؛ (حـ) والمستنيرون من سواد الناس يرون فى نشرها بين طبقات الشعب فوزاً لقضية الأخلاق، وإعلاء لشأن بلادهم ، ورفعاً لمكانتها بين الأمم .

دولة الطفل

لذلك توجهت أفكارهم جميعاً إلى الطفل ، فأحاطوه بسياج من العناية والرعاية ، وغذوه بالمعلومات النافعة المهذبة ، التى تفى بحاجات الفرد والمجتمع معاً ؛ حتى أصبحت كل أسرة ـ فى السهر على أبنائها وتعهد شئونهم ـ كالزارع اليقظ النشيط الذى يتعهد غرسه بالحرث والسقى ، كى يأتى فى الغد بأوفر نتاج .

وقد صدر الكاتب الفرنسى (فيلكس توما) كتابه « التربية فى الأسرة وذنوب الوالدين » بديباجة ممتعة استهلها بقوله :

« بينما ممالك كثيرة تهى وتدول ، إذا بالقرن التاسع عشر يرى دولة جديدة نشأت بين أحضانه ، وأخذت قدمها ترسخ فيه يوماً فيوماً ... تلك هى دولة الطفل » .

من هذا نرى أن القرن التاسع عشر امتاز على ما تقدمه من القرون بأنه عصر الطفل .

فالشعراء فى فرنسا ـ من عهد (فيكتور هيجو) إلى اليوم ـ اهتموا جد الاهتمام، وعنوا أيما عناية بدراسة نفسية الطفل الغامضة ، وميوله المتغيرة ، وأفكاره المتقلبة ووافيوا صعوده تدريجياً من عالم الخفاء والظلمة إلى عالم الوضوح والنور؛ وقد حذا حذوهم فى ذلك : الكتاب، والفلاسفة، والعلماء، والأطباء فالتفوا جميعاً حول مهد الطفل، يرقبون حركاته وإشاراته وابتساماته،

ويدونون تجاربهم حتى أخرجوا للناس صورة حقيقية للطفل ، تختلف تمام الاختلاف عن الصورة التي صورها له علماء القرون السابقة ، والتي كان للخيال والمبالغة فيها أكبر الأثر .

أجل ! وجد في كل جيل من الأجيال السالفة كتاب وشعراء أحبوا أبناءهم حباً عظيماً ، وحنوا عليهم حنواً كبيراً ، فدرسوا طباعهم ، وترجموا عن عواطفهم ، مثل (بلوتارك) الكاتب اليوناني القديم ، الذي عاش في منتصف القرن الأول للميلاد ، فانه بعث إلى صديق له بكتاب - معروف في عالم الأدب عقب موت بنته الوحيدة - يصف فيه رقة شعورها وصفاً مؤثراً ، إذ يقول: إنها كانت تتوسل إلى مرضعتها أن تمنح تدييها ، لا للأطفال الصغار الذين كانوا يلعبون ويرتعون معها فحسب ، بل للدمى (العرايس) التي كانت تلهو بها وتفرح برؤيتها ، والتي كانت تجلسها معها على مائدتها ، وتغدق عليها أرق وأعذب ما عندها من عبارات المداعبة والملاطفة ، كأن فطرتها السليمة تحس وجوب مقابلة الاحسان بالاحسان ؛ وبهذه المناسبة أذكر أبياتاً « لخطان بن المعلى الجاهلي » ، يصف عطفه على بناته :

لولا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضطرب واسع ... في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني عن الغمض

ولما مات « ذرة بن عمر بن ذرة » وقف على قبره ، فقال : « يا ذرة ! إنه قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، لأنا لا ندري ما قلت ولا ما قيل لك » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال: « اللهم إني قد وهبت لك ما قصر فيه مما افترضت عليه من حقي ، فهب له ما قصر فيه من حقك ، واجعل ثوابي عليه له ، وزدني من فضلك ، إني إليك من الراغبين » .

ولا بد أن يكون عدد هؤلاء الأفراد قد أخذ يزداد شيئاً فشيئاً بتوالي العصور حتى بلغ حداً لا يستهان به في القرن الثامن عشر تحت تأثير تعاليم (روسو) ، وفلسفته في تربية الطفل ، ولكنا نعلم أنه بالرغم من انتشار تعاليم ذلك الفيلسوف في أغلب الأسر والمدارس ، فقد كانت الملاطفة والمداعبة يستران وراءهما ضروباً من الشدة والخشونة ، وكان الولد عبداً مملوكاً ، والوالد سيداً مالكاً .

أما اليوم ، فقد تبدلت الحال غير الحال ، وأصبحت للولد حقوق ، بعد أن لم يكن عليه إلا واجبات ، فصار ذا شخصية حقيقية ، له أن يتمتع بالحرية والاحترام ، وبجميع الحقوق التي تساعد على نمو قواه الجسمانية والعقلية ، كما أصبح شخصاً اجتماعياً ، ينتظر له في الغد أن يكون عضواً عاملاً في المجتمع ، له ما لنا ، وعليه ما علينا .

لهذا لم يكن بد للحكومة ـ التى هى مرآة الرأى العام فى كل بلد ـ من أن تغير نظمها وفقاً لهذه الأفكار الجديدة، وتعنى عناية خاصة بكل ما له علاقة بتعليم الأطفال وتهذيبهم، فجعلته فى متناول الجميع ، لأن الجميع لهم الحق فيه، وجعلته مجاناً وإجبارياً ، وصيرته شائقاً لذيذاً ، حيث أصلحت المبانى القديمة ، وأنشأت مدارس جديدة على طراز جديد جميل ، كما نقحت المناهج تنقيحاً اختزلها إلى النصف، وخلصها من الشوائب والزوائد ، وجعلت القناعة فى العلم أساساً للتعليم فى المدارس الابتدائية .

ولكى تجنى ثمار هذا كله ناضجة شهية ، عمدت إلى إعداد المعلمين المهذبين الأكفاء ، وبذلت ـ عن سخاء وطيب خاطر ـ المبالغ الطائلة فى هذا السبيل ، علماً منها أن الانفاق عن سعة فى هذا الباب هو الغنى بعينه .

ولما أعدت المعلم الكفء منحته ثقتها وأعطته الحرية التامة فى تدريس المناهج ، فاذا شاء قدم موضوعات على أخرى ، وإذا شاء حذف منها ، أو أضاف عليها ، ثم هو بعد ذلك يوجه من تلقاء نفسه التعليم الوجهة الصالحة المنتجة بما يناسب البيئة التى يعيش فيها الأطفال ، فان كانت زراعية علمهم أصول الزراعة وأحوالها بصفة خاصة ، وإن كانت صناعية أو تجارية وجههم إلى الصناعة أو التجارة لتهيئتهم لكسب العيش فيما بعد بمزاولة العمل الحر ، لأن التعليم يجب أن يكون تعليماً ومهذباً فى آن واحد .

هكذا سارت فرنسا متعاونة شعباً وحكومة على النهوض بالتربية والتعليم ، فقطعت شوطاً بعيداً فى هذه السبيل ، كأنهم فهموا ـ جميعاً ـ تلك النصائح الغالية التى جادت بها قريحة مواطنهم (كوندرسيه) الفيلسوف والكاتب الفرنسى الشهير ، إذ يقول :

« على قدر النصيب الذى تناله الأمة من التربية والتعليم تكون مقدرتها على حكم نفسها بنفسها ، مما يقوم دليلا على أنها جديرة بأن تعيش أمة حرة » .

ولكن بالرغم من هذا التعاون القوى ، والتضامن الشديد بين الحكومة والشعب ، فان الخبيرين بشئون التربية يذهبون إلى أن النتيجة التى وصلوا إليها ، لم تأت متناسبة مع الجهود العظيمة التى بذلت ، وأنهم لا يزالون بعيدين عن النتيجة المرجوة والغاية المنشودة ؛ فلم تزل الأصوات ترتفع بالشكوى من نقص التربية فى جميع مناحيها البدنية والعقلية والخلقية .

فعلى من تقع التبعة يا ترى ؟ يقول المسيو (فيلكس توما) رداً على هذا السؤال : إن المتهم الأول هو الحكومة دائماً ، لأنها لم تبرأ من النقد واللوم مهما تجد ، ولأنها ممثلة فى أشخاص ، والأشخاص يستحيل عليهم الكمال ؛ ويرى أنه يجب علينا أن نذهب فى بحث السبب الرئيسى إلى أبعد من هذا ، فنجده فى الأسرة وفى الأخطاء الكبيرة والذنوب العديدة التى يرتكبها الوالدان فى تربية أبنائهما قبل المدرسة ، إما بسبب الجهل وهو الأغلب ، وإما بسبب الاهمال والأثرة وحب الذات ؛ ومن ثم ينشأ معظم الشر الذى يئن منه المجتمع .

الصحة والزواج

يقول بذلك مسيو (فيلكس توما)، ويرى - فى هذا الصدد - أن أكبر الذنوب التى يقترفها الوالدان وأخطرها - لأنه غير قابل للاصلاح - إهمالها مراعاة الصحة قبل الزواج . فهل من الانسانية والمروءة والتبصر فى عواقب الأمور أن يسرف الشخص فى الملاهى والملاذ حتى تختل بنيته ، وتعتل صحته ، ويفسد عقله ؛ ثم يقدم على الزواج لينسل ذرية ضعيفة ضئيلة ، تشكو - طوال العمر - الآلام والأمراض التى ورثوها عن والديهم ، دون أن يكون لهم فى ذلك أى دخل ؟ « غيرى جنى وأنا المعذب » ؟

لذلك اهتمت بعض الأمم الراقية بالأمر اهتماماً عظيماً، وحرمت عقد قران رجل على امرأة إلا إذا أثبت كلاهما طبياً أنه خلو من الأمراض الفتاكة المشهورة ، حرصاً منها على سلامة النسل ، وحفظه من الأمراض العقلية والعاهات الخلقية .

أما إذا ترك الأمر - كما هى الحال فى معظم البلدان - إلى حكم الشهوات والمصادفات، وخالف الناس نواميس الطبيعة وخرقوا قوانينها ، فانها لا بد تثأر لنفسها ، ولا لوم فى ذلك إلا أنفسنا إذا حل انتقامها بالمساكين الأبرياء .

فاذا رجع الناس إلى صوابهم وثابوا إلى رشدهم فى مسألة الزواج - وقد رأوا نتائجه الخطيرة وتبعاته الثقيلة - لعنوا - قبل أى اعتبار آخر - بأمر الصحة ؛ ولكن ذلك ليس عندهم بالأمر الهام .

يقول أفلاطون : إنك إذا أسديت للناس النصح فى هذا الصدد ، فكأنك تخاطب صماً لا يسمعون ؛ لأنهم ينقادون إلى الشهوة العمياء دون الاصغاء إلى نداء العقل وهدى التفكير .

نعم ، إن الغنى والحسب والجاه والجمال أمور جبلت النفوس على طلبها فى الزواج ، ونحن لا نلومهم على الجرى وراءها ، ولكنا نلومهم على اكتفائهم بها وإغفالهم أمر الصحة التى يجب أن تكون الدعامة التى يقوم عليها صرح الزواج .

ولنفرض الآن أن شرط الصحة قد تحقق فى الزوجين وتم الزواج ؛ فهل تكون بذلك قد وصلنا إلى كل ما نريد ؟ كلا ، فان هناك واجبات تبدأ ببدء الحمل تقتضيها حياة الطفل فى أثناء الحمل، ومعظمها منصب على الأم وحدها، فيجب عليها أن تتجنب كل ما من شأنه أن يضر بصحة طفلها حساً ومعنى ، بل يجب عليها أن تبحث عن كل ما ينميها ويقويها ، فما من عمل تأتيه أثناء الحمل ، أو فكر يمر بخاطرها إلا له أثره فى طفلها ؛ حتى إنه ليحدث أحياناً أن الطفل يبكت طول حياته يعانى أمراضاً وآلاماً نشأت من أن أمه - وقت الحمل - زاولت أعمالا أنتجت فيه ما أنتجت ، وإن لم يكن لها فى نفسها إلا أثر وقتى .

وإنى أسوق إلى القراء مثالين تاريخيين على أن أعقبهما بأمثلة أخرى يستدل منها على أن

الاستعدادات المختلفة التى تولد مع الطفل : كالخوف، والشجاعة، والكسل، والغيرة، والحسد ، أو الميل إلى عمل من الأعمال دون عمل.. إن هى إلا نتيجة انفعالات نفسية قامت بنفس الأم، أو أثر لأعمال كانت تأتيها أثناء الحمل .

المثل الأول : عن أحد زعماء الحركة الفكرية فى انجلترا فى القرن السابع عشر ، وهو (توماس هوبز) ، فإنه عاش طول حياته يشكو ألم الانكماش والخوف، ويعزوها إلى انزعاج أمه عند ما اقترب الأسطول الاسبانى (أرمدا) من شواطىء انجلترا ؛ وكان إذ ذاك جنيناً فى بطن امه ، فليس عجيباً إذاً أن تتأثر فلسفته بهذا ، فانك إذا قرأت مؤلفاته ، تجد أن سياسته الفلسفية تدور حول فكرة أساسية واحدة هى : الاضطراب والخوف، فتقول مثلا: إن الناس فى سبيل تخلصهم من العيشة وفق الحال الوحشية الأولى ـ التى كانت كلها فوضى واضطراباً ـ قد تنازلوا عن حرياتهم، وقبلوا أن يعيشوا تحت سلطة الفرد المطلقة ، ورضوا بالاستبداد، لأنه وإن كان شراً فى ذاته ، فقد خلصهم من شرور الحال الأولى : وهى أنكى وأمر ؛ ولذا عد من الفلاسفة المتشائمين .

المثل الثانى : عن (مارى ستيوارت) بنت (جيمس) الخامس ملك (اسكتلندا) ـ فيما بعد (جاك الأول ملك انجلترا) ـ من أميرة فرنسية (مارى دى لورين) .

تزوجت (مارى استوارت) بـ (فرنسوا الأول ملك فرنسا) ، وترملت بعد ذلك لسنة، وعادت فى سنة ١٥٦٠ إلى وطنها الأول، واقترنت بابن عمها (هنرى دارنلى)، وكان أصغر منها سناً، ولكن لم يمض على عقد الزواج قليل وقت، حتى أسفت على حدوثه لما تبينته من ضعف بنية زوجها الشاب ، وفساد أخلاقه ؛ كما تألم هو أيضاً منها ، لأنها تأخرت عليه فى منحه امتيازات الملكية وحقوقها ، واتهم فى ذلك أحد احصائها (ريزّ)، فقتك به ذات يوم على مرأى منها، ومع شدة تألمها لهذا الحادث الفظيع، فقد تظاهرت لزوجها بالصفح عما فعل، ولكنها لم تلبث أن دبرت له مكيدة لقى حتفه فيها، ثم تزوجت من القاتل له، فقضت المكيدة عليها بدورها وزج بها لذلك فى أعماق السجون، وصادف أن مرت كل هذه الأهوال ، وهى حامل فى (جاك) الذى صار فيما بعد (جاك الثانى ملك انجلترا) ، فكان لذلك جباناً تضرب بجبنه الأمثال ، حتى إنه كان يرتعد إذا رأى سيفاً يسل من غمده أمامه. والتجارب الحديثة التى أجراها العلماء ويجرونها كل يوم على النفس ، تؤيد هذه النظرية كل التأييد ، فهل هناك حقيقة أمهات يقدرن هذا الموقف قدره ، فيكثرن أثناء الحمل من مراقبة عواطفهن وأفكارهن ، والعمل على ضبطها واستجماعها بالتزام الهدوء والسكينة ، حتى لا يكدرن صفو الطفل فى منبته ومستقره ؟

وهل تعرف الأم ما يجب عليها فى هذا الظرف الخطير؟ ذلك ما سنتكلم عنه فى العدد القادم.

أحمد فهمى العمروسى